القدس ومكانتها الإسلامية (١)

الأخ أبو الهدى

للقدس مكانة خاصة في قلوب المسلمين ، وإليها تتجه أنظار العالم أجمع .. ولم تنشأ مكانتها هذه من عاطفة تاريخية ولا أمجاد يملأ ذكرُها القلبَ فخراً بها وحسرةً على ضياعها ، فحسب .. بل هي المكانة المقدسة التي حباها الله عزَّ وجلَّ بها .. ولم تتجه أنظار العالم إليها لولا مكانتها هذه في نفوس المسلمين ، ولولا الطمع في السيطرة على مكان تخفق له قلوب المؤمنين وتجتمع حوله كلمتهم ويرتبط به تاريخ الديانات السماوية .

ولا يهدف الحديث حول مكانة القدس الإسلاميّة إلى إثبات انتمائها الأصيل إلى ديار الإسلام والمسلمين إثباتاً جديداً ، فذلك ما لا يحتاج من أجله المنصف إلى إثبات ولا يفيد فيه مع الجاحد إقناع ولا منطق .. والعالم لا يرى في هذا العصر إلاّ بمنظار الأحداث ولا يستمع إلاّ لمن يؤثر في مجراها .. إنما يهدف الحديث حول المكانة الإسلاميّة للقدس إلى تذكير الطلائع الإسلاميّة بالمسؤولية المضاعفة التي يضعها على عاتقها بيت المقدس والدور العظيم الذي أراد الله لها الاضطلاع به لرفع راية الإسلام عاليةً ثابتة الأركان فوقه بعد ضياعه من أيدي الجيل الذي سبقها .

مقدمة تاريخيـــة

تبدأ كتابة تاريخ القدس وفلسطين عامّة بهجرة الكنعانيين –وهم قبائل عربية ساميّة– من شبهِ الجزيرة العربية إليها قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثلاثة آلاف سنة[١] . وقد سكنت بعض قبائلهم بيت المقدس التي أطلقوا عليها اسم (يوروشاليم) ، وأصبحت آنذاك مركز عبادة للكنعانيين . والراجح أن الاسم مركب من كلمتين : (يورو) و(شاليم) ومعنى الأول تأسيس أو مدينة والثانية اسم إله عبده الكنعانيون[٢] .

وأقام بعد الكنعانيين في القدس العديدُ من الأجناس من الساميين وغيرهم ، وكان اليبوسيون آخر بطون القبائل الكنعانية التي سكنت فيها . وقد أطلقوا عليها اسم (يبوس) وظلوا فيها حتى فتحها اليهود على يد داود عليه السلام في القرن الحادي عشر قبل الميلاد[٣] .

وقد حرّف العبرانيون الاسم الكنعاني أو (عبرنوه) حيث ينطقونه (يروشالايم) ولكن الاسم الشائع لها في العهد القديم هو (أورشليم) .

وتقدر الفترات التي استقر فيها اليهود ببيت المقدس وفلسطين عامة بـ ٤١٨ سنة كان أبرزها في عهد داود وسليمان عليهما السلام إذ دام حكمهما نحو ثمانين سنة[٤] .

وذكر ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) حول بناء بيت المقدس أن داود عليه السلام جهز كل شيء لبناء الهيكل أما الذي أقامه فهو سليمان عليه السلام ، وذكر أيضا : (قيل : إنّ سليمان هو الذي ابتدأ بعمارة البيت ، وكان داود أراد أن يبنيه فأوحى الله إليه أنّ هذا بيت مقدس ، وأنك قد صبغت يدك في الدماء فلست ببانيه ، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء . ولعل هذا النص –إن صحّ– يبين أصل تسمية بيت المقدس بهذا الاسم .

وقد خُرِّب بيت المقدس في التاريخ القديم على أيدي البابليين والمكدونيين والرومان . ففي سنة ٥٨٦ ق.م دمَّره (نبوخذنصر)[٥] ملك بابل وجنوده وقيل عنه إنه أسال دم بني إسرائيل أنهاراً في المدينة المقدسة وقسمهم إلى ثلاث فرق فقتل ثلثاً وأقرّ بالشام ثلثاً وسبى الثلث الأخير[٦] .

وفي عام ٥٣٨ ق.م سمح الملك (كورش) الفارسي بعودة اليهود إلى ديارهم وإعادة بناء معبدهم في أورشليم . وعاد آنذاك بعضهم ولكن غالبيتهم الساحقة فضلت البقاء في المنفى[٧] . وفي سنة ١٧٠ ق.م دمر الهيكلَ (أنطونيوس) ملكُ المكدونيين ، ثم دمره (تيطوس) الروماني عام ٧٠ ق.م وكان الدمار الشامل والأخير على يد الإمبراطور الروماني (هدريانوس) سنة ١٣٥م إذ دمّر المدينة عن آخرها و لم يُبقِ من الهيكل حجراً على حجر وحرث أرضها وأمر بقتل اليهود واستئصال جنسهم وبأن تسمى باسم (ايليا) وهو مشتق من اسم الإمبراطور نفسه : (Aleius Hadrianus)[٨] . ومنذ ذلك الحين لم يعد لبني إسرائيل وجود في القدس وفلسطين بشكل عام إلاّ بصور فردية ومشتتة وظلت القدس في قبضة الرومان حتى فتحَها المسلمون في السنة الخامسة عشرة للهجرة .

مكانة القدس الإسلاميّة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلّم :

قال الله سبحانه وتعالى في مستهل سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١]

لقد أطلقت هذه الآية الكريمة على تلك البقعة المباركة في القدس اسم (المسجد الأقصى) لأنها في مكان (قصي) بالنسبة إلى المسجد الحرام . وسماها الله عزَّ وجلَّ مسجداً على غير المألوف آنئذ لأن المسجد هو أفضل الأماكن عن المسلمين ولا يقبلون –عندما يكون الإسلام وحده المسيِّر لحياتهم– أن يكون لغيرهم سيطرة عليه ويبذلون أنفسهم رخيصة في سبيله . وإذا كان لتلك الرحلة المباركة الكثير من المعاني والآفاق فإنما يقتصر الحديث في هذا المقام على وضع المسجد الأقصى في هذه الرحلة المباركة .

ولو كان هدف الرحلة قاصراً على عروج محمد صلى الله عليه وسلّم إلى السماء ورؤيته ما رآه من آيات الله تعالى لما استدعى الأمر أن تكون الرحلة على مرحلتين : إسراء ومعراج ، فالله القادر على أن يجعل نبيه يعرج إلى

السماء من بيت المقدس قادر أيضاً على العروج به من أيّ مكان يشاء وقادر أن يعرج به من مكانه الذي كان فيه .. ولو كانت الرحلة سياحة فوق الأرض لكان هناك بقاع شتى للإسراء خلاف صحراء شبه الجزيرة العربية القاحلة التي قطعها رسول الله صلى الله عليه وسلّم من قبل في صباه وشبابه .. بل كان عروجه صلى الله عليه وسلّم مـــن هـــذا المكان المقدس إشارة إلهية لإعزازه وتكريمه وقد كان دوماً مقراً للأنبياء ومهبطاً للملائكة .

ومن معاني هذه الرحلة المختارة من اللطيف الخبير الربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيـــل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وإبراز لمعنى الإسلام الحقيقي ، الدين الحـــق الذي دعا إليه الأنبياء جميعا . وقد برز ذلك في صلاة الرسول صلى الله عليه وسلّم بالأنبياء جميعاً رمزاً للوحدة بـــين غايات سائر الأديان السماوية . وهنا يسترعي الانتباه .. هل كان ضرورياً أن يتم هذا اللقاء المبارك في بيت المقـــدس بالذات إلاّ لما حباه الله من مكانة رفيعة جعلته أهلاً للقاء أفضل البشر عليهم الصلاة والسلام ؟ إنّ لتخصيص المسجد الأقصى بهذا اللقاء دلالةً بالغةً على قدسية القدس الشريف في نفوس المسلمين والربط المباشر بين الأماكن المقدسة التي تمثلت في المسجد الحرام والمسجد الأقصى اللذين ذكرهما الله معاً في الآية الكريمة حثّاً للمسلمين على الحفاظ عليهمـــا وتطهيرهما من مظاهر الشرك والمشركين .. فكأنما أعلنت تلك الرحلة المباركة وراثة خاتم النبيين لمقدسات الرسل قبله وشمول رسالته لرسالاتهم فأصبح المسلمون هم ورثة الأماكن المقدسة والمطالبون برعايتها بما يتناسب مع وضعها الذي ارتضاه الله عزَّ وجلَّ لها .

وكان فرض الصلاة من أهم نتائج هذه الرحلة الخالدة ، والصلاة –كما قال عنها الرسول الكريم صلى الله عليـــه وسلّم – عماد الدين .. وعندما يرد ذكر الصلاة يطوف بالأذهان ذكر المسجد الأقصى الحبيب فقـــد كـــان الأمـــر بالصلاة في رحلة المعراج منه والعودة من السماء إليه وكانت صلاة النبي –عليه أفضل الصلاة والتسليم– بالأنبياء فيه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلّم أول مسلم صلى في ذلك المكان الطاهر . وعندما يرد ذكر الصلاة يعلم المـــسلم أن كل بقاع الأرض سواء في إقامتها لقولـــه صـــلى الله عليـــه وســـلّم : « ... **جُعِلَـــتْ لِـــيَ الأَرْضُ طَهُـــورًا وَمَسْجِدًا** ... »[٩] .. إلاّ ثلاثة مواضع حددها الرسول صلى الله عليه وسلّم إذ قال : « **لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِي هَذَا وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى** »[١٠] . وفي هذا التخـــصيص تكـــريم لتلـــك الأمـــاكن المقدسة ، ما كان منها تحت راية الإسلام وما لم يكن بعد .. فهذا المسجد الأقصى بقعة من ثلاث بقـــاع في الأرض خصّت بهذه القدسية ، يثاب المسلم في الحج إليها والصلاة فيها أكثر من سائر بقاع الأرض .

ولنا مغزى إسلامي عظيم في أن المسجد الأقصى كان أولى القبلتين .. فقد توجه الرسول الكريم صلى الله عليـــه وسلّم وصحابته رضوان الله عليهم إلى المسجد الأقصى في صلاتهم سبعة عشر شهراً بعد الهجرة إلى المدينة ، وإن توجّه روح الرسول صلى الله عليه وسلّم وقلبه وأرواح المسلمين وقلوبهم إلى هذه البقعة الطاهرة رغم أنها كانت في قبـــضة الروم النصارى آنذاك لَدليلٌ كبير على عظيم مكانتها في الإسلام وعند المسلمين وتحفيز لهم على تطهيرها وعبـــادة الله

فيها وذكر اسمه سبحانه وتعالى في المكان الذي قال فيه : ﴿ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ حيث يأتي لفظ (المباركة) حافّــاً بالمسجد محيطاً به يعمّ المكان كلّه بظلاله .. فأيّ (بركة) فقدنا وبأيّ خسارة مُنينا ؟ ..

وكانت البداية العملية لوضع المسجد الأقصى في حوزة الإسلام في السنة الثامنة للهجرة في غزوة (مؤتــة) الــتي استشهد فيها كثير من المسلمين وعلى رأسهم قواد الجيش الثلاثة : زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، من أحباء الرسول صلى الله عليه وسلّم وأقربهم إلى قلبه رضي الله تعالى عنهم أجمعين .. وكانت هذه الغزوة أول مرة تتجه فيها الجيوش الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية

وكانت (تبوك) خاتمة غزوات النبي صلى الله عليه وسلّم في السنة التاسعة للهجرة في اتجاه الــشام لقهــر الــروم المسيطرين على بيت المقدس .. كانت حثاً للمسلمين على استمرار الجهاد لاستخلاص الأرض المقدسة .

وكان آخر جيش جهزه الرسول صلى الله عليه وسلّم جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وكان يعده للتوجــه إلى الشام حيث أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يستمر توجه المسلمين نحو البقعة المباركة بالقدس الــشريف .. ولا ينتهي ذلك في نظر الإسلام بوفاته صلى الله عليه وسلّم .

وقد بلغ من تقديس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم للمسجد الأقصى الشريف أن جماعــة منــهم رأوا حين وفاته أن ينقل جثمانه الشريف إلى بيت المقدس ليدفن فيه بجانب المسجد الأقصى بجوار إخوانــه مــن الأنبيــاء الصالحين .

فتح القدس على يد عمر ودلالته

كان الفتح الإسلامي لبيت المقدس في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثاً فريداً يتناسب مــع جلال المكان وقدسيته . فرغم الفتوحات الهائلة التي تمت في عهده لعشرات الممالك والمدن لم تشارك بيتَ المقدس أيةُ بقعة أخرى في طريقة فتحه ودخول الإسلام إليه . فهاهم جنود المسلمين يحاصرون بيت المقدس والروم يستميتون في الدفاع عنه ، إلا أنهم أمام قوة العقيدة التي تملأ قلوب جند الله وما سمعوه ورأوه من انتصاراتهم الباهرة على كل مــن وقف في طريقهم طلبوا المصالحة على لسان بطريركهم (صفر نيوس) على أن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطــاب رضي الله عنه بنفسه . فكتب عمرو بن العاص له فرحب بذلك وشرع من توه في السفر إلى تلك البقعة الطــاهرة . وقطع عمر ثلثي المسافة من المدينة المنورة إلى بيت المقدس ماشياً ، إذ خرج ومعه غلام وراحلــة واحــدة .. فكــان يركب مرحلةً وغلامه أخرى ، ثم يتركان الراحلة تمشي أمامهما مرحلة ثالثة متخففة من الحمل . وعندما وصل عمر بن الخطاب رضي الله عنها إلى أحد الجبال المشرفة على القدس كبّر فسمي الجبل بـ (جبل المكبّر) وصالح أهل البلــدة الآمنة وتسلمها من الروم دون أن تسيل قطرة دم واحدة لأول مرة في تاريخ الصراع عليها .. وعندما طلــب مــن

البطريرك أن يريه موضعاً يبني فيه مسجداً أشار له إلى الصخرة التي كلّم الله عليها يعقوب عليه السلام فوجد عليهـــا ردماً كثيراً فشرع في إزالته بيده يرفعه في ثوبه ، واقتدى به المسلمون كافة فأزيل الردم لحينه وأمر عمر ببناء المسجد .

لقد كانت هذه المرة الوحيدة التي يتسلم فيها عمر بن الخطاب الصحابي الجليل والخليفة الراشد مدينـــة فتحهـــا المسلمون بنفسه .. وما كان الأمر يستدعي تلك المشقة منه وذلك الانتظار من جنده ولا الاستجابة إلى طلب الأعداء المحاصرين وليس أمامهم إلا التسليم .. ما كان الأمر يستدعي ذلك كله لولا مكانة القدس في نفس عمر وفي نفـــوس المسلمين كافة وأولهم أولئك المرابطون حولها ..

ومنذ ذلك الحين ، في السنة الخامسة عشرة للهجرة والقدس إسلامية يرتفع في سمائها الأذان وتعمرهـــا المـــساجد وتملأ مسجدها الأقصى صلوات المؤمنين العابدين حتى المحنة الكبرى في الغزوة الصليبية الأولى ..

---

(١) Dr. F. Scheidl, Israel (1.Band), Wien, 2. Auflage S. 77

(٢) Lexicon Invertis Testamenti Libros, Leiden 1951, P. 403
نقلاً عن كتاب عروبة المقدس للدكتور اسحق موسى الحسيني ، مركز الأبحاث في بيروت ، تموز/يوليو ١٩٦٩م ، ص ٣٠-٣١

(٣) (عروبة بيت المقدس) ، ص ١١
و Dr. F. Scheidl, Israel (1.Band), S. 77

(٤) عروبة بيت المقدس ، ص ١١

(٥) يسمى في بعض المصادر التاريخية (بختنصر)

(٦) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، المجلد (١) ص (١٥٠) دار الكتاب العربي ، ط٢ ، ٨٧هـ

(٧) ألفريد ليلنتال ، ثمن إسرائيل ، ط ٤ ، ٥٥م ص ١١

(٨) عروبة بيت المقدس ، ص ١٤

(٩) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(١٠) رواه مسلم عن أبي هريرة .